

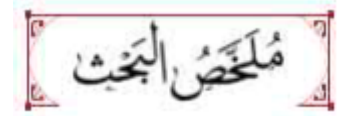
أدبية الرحلات الداخلية عند الإمام عبد الحميد بن باديس

The Literary Aspects of Internal Journeys of Imam Abdelhamid Ibn Badis

أ.د. عبد الرحمن بغداد

المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، abderrahmane-beghdad@hotmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025 / 09 / 01	2025 / 08 / 05	2025 / 07 / 05



يُعد أدب الرحلة، كسائر الأجناس الأدبية، شكلاً متميزاً يتفرد بخصائص بنيوية وسردية تميزه عن غيره من الفنون. وتولي الدراسات الأدبية المعنية بهذا النوع اهتماماً خاصاً بالبُعد البنائي للرحلة، لما ينطوي عليه من فرادة في الأداء السردية. ومن هذا المنطلق، يُركّز هذا البحث على استجلاء البناء الفني في الرحلة، بعيداً عن مضامينها الظرفية أو السياقات التاريخية التي أحاطت بها.

دَوّن العلامة عبد الحميد بن باديس (1889-1940) عدداً من الرحلات، غير أنّ التركيز في هذا البحث ينصبّ على الرحلات الداخلية، نظراً لما أولاه لها من اهتمام بالغ، حيث كانت يُلقى دروسه لما يحلُّ بأية مدينة أو قرية جزائرية، يحث فيها أهلها على الفضائل ويحذرهم من الرذائل ويدعوهم إلى التآلف والتعاون، مُشجعاً دائماً بأية من كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتميّزت رحلات الشيخ إلى المدن الجزائرية الداخلية بخاصة بطابعها السردية اللافت، الذي يمنحها حضوراً أدبياً مقارنة برحلاته الأخرى.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة – عبد الحميد بن باديس – المدن الجزائرية – السرد – العتبات.



Travel literature, like other literary genres, is a distinctive form characterized by unique structural and narrative features that set it apart from other artistic expressions. Academic studies in this field pay particular attention to the structural dimension of the travel narrative, owing to its singularity in storytelling performance. Accordingly, this study focuses on uncovering the artistic construction of travel writing, setting aside its circumstantial content or historical contexts.

The scholar Abdelhamid Ben Badis (1889–1940) documented numerous journeys; however, this research focuses specifically on his domestic travels, given the particular significance he accorded to them. In every city or village he visited, he delivered sermons, encouraging virtue, warning against vice, and advocating for unity and cooperation—always supported by verses from the Qur'an and sayings of the Prophet (peace be upon him).

His journeys to Algeria's interior cities, in particular, were marked by a striking narrative quality that lends them a literary presence more pronounced than in his other travels.

Keywords: Travel Literature – Abdelhamid Ben Badis – Algerian Cities – Narrative – Thresholds.

1. مقدمة:

إنَّ من أهم الوسائل التي استعملتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تحقيق أهدافها الإصلاحية، هو ما كان يقوم به أعضاؤها من رحلات وتنقلات إلى المناطق المختلفة في داخل الوطن أو خارجه، خاصة إذا علمنا أن نسبة الأمية والفقر المتضخمة آنذاك لا تُتيح لأكثر الناس الاطلاع على ما يكتبه علماء الجمعية في صُحفها. وقد استعان رائد النهضة الإسلامية في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940) بهذه الوسيلة في تدوين رحلاته الأربع داخل الوطن جاءت وفق الترتيب التالي، مراعين في ذلك الأسبقية في النشر¹:

1. الأولى رحلة شملت مدنا وقرى في الجهة الشرقية من الوطن سنة (1929)

2. في الثانية توجه إلى منطقة القبائل سنة (1930)

3. قادته الثالثة إلى مدن من وسط الوطن وغربه سنة (1931)

4. زار في الخامسة غرب الوطن سنة (1932)

* أهمية موضوع الدراسة

تتجسد أهمية الدراسة في أهمية هذه الرحلات التي اهتم الإمام ابن باديس بتدوين مشاهداته وما تركته من انطباعات في نفسه، يمكن تحديد معالمها من خلال الأمور الآتية:

1. التمييز الذي حظيت به هذه الرحلات باعتبار أنها رحلات ذات بعد إصلاحي؛ غرضها تربية النشء وبث الوعي في النفوس، وحث الشعب الجزائري على العودة إلى دينه.

2. أن توثيق مشاهدات الرحلات بتدوين ابن باديس نفسه، هو ما يُعطي أهمية لهذا النوع من الدراسات حيث يُتيح للباحثين مزيداً من الاستنتاجات والتحليلات.

3. أنَّ الإمام الكاتب تناول عوالم جديدة من خلال اكتشافه للآخر/ الإنسان الجزائري، حيث سعى إلى توثيق في رحلاته - بكل صدقٍ ووعي - الحالة الاجتماعية والدينية والفكرية للجزائريين، وبذلك تميز كل نص من نصوص الرحلة بطابع كاتبه الخاص ورؤيته الفريدة، وإن تفاوتت وجهات الرحلة وطبيعة الأماكن تبقى عدسة الكاتب هي التي تصنع الفارق الأكبر وتلون كل نص بلونه المميز.

* دواعي الدراسة

جاء اختياري لرحلات الإمام ابن باديس رئيس جمعياته المباركة، وإمام الجامع الأخضر بقسنطينة من عدة جهات، منها أنها رحلاتٌ دينيةٌ واجتماعيةٌ غايتها إصلاحيةٌ، تجشم خلالها الشيخ مصاعب الترحال ومتاعب السفر وشدائده في سبيل الدعوة إلى إصلاح المجتمع الجزائري وجمع شتاته بتوحيد كلمته ونبذ الفوارق التي أحدثها المستعمر الفرنسي. وقد وُفقَ الشيخ في ذلك توفيقاً جعلت المؤرخين للحركة الوطنية في الجزائر (منهم أبو القاسم سعد الله في كتابه الحركة الوطنية الجزائرية ص440) أجمع على أنه لا وجود لشخصية في العصر الحديث أثَّرت على كامل المجتمع الجزائري كما فعل ابن باديس، بل وأكثر من ذلك فإنَّ بعض الباحثين الغربيين (منهم الكاتب البريطاني خوان غيليسبي Joan Gillespie في كتابه الجزائر الثائرة) جعله أقوى شخصية في العالم الإسلامي في الفترة التي ظهر فيها، بل وتمثله الشاعر الجزائري محمد الصالح رمضان (1916-2008): "أحد الحواريين أو أحد الصحابة، ورجلاً يتمثل فيه الإسلام ويتجسد كاملاً نَقِيّاً بأجل معانيه".

ثم إنه ما قادني أيضًا إلى اختيار هذا الموضوع أنّ الإمام ابن باديس لم ينل حقه من الذكر والبحث والاهتمام أدبيًا على غرار صديقه الشيخ البشير الإبراهيمي، فجُلُّ ما يُعرف عنه أنه كان من علماء الدعوة الإصلاحية في الجزائر، وأنَّ جُلَّ ما كُتِبَ عنه رحمه الله كان عن دوره التربوي والإصلاحي، أو عن منهجه في الدعوة والتفسير.

* الدراسات السابقة

رغم افتقار الساحة الأدبية ولاسيما المختصة بأدب الرحلة إلى الدراسات التحليلية التي تبحث في رحلات ابن باديس على وجه الخصوص؛ لكن أفدت من بعض الدراسات الوصفية المتخصصة التي تناولت المضمون، ولعل أهمّها:

1. اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة
 2. الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة لعمر بن قينة
 3. أدب الرحلة الجزائري الحديث لعيسى بخيتي (أطروحة دكتوراه بإشراف أ.د. محمد مرتاض)
 4. تجارب في الأدب والرحلة لأبي القاسم سعد الله
 5. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني لعмираوي احميده
- ثم أخيرًا، كان الشغف الشخصي بأدب الرحلة ما حفزني على دراسة الجانب البنائي في رحلات الإمام بوصفها بنيةً مميزةً تُقرِّبها من السرد الأدبي وتجعل منها نُصوصًا أدبيةً فضلًا عن كونها رحلات.

* إشكالية الدراسة

لم تخُلْ هذه الدراسة من عدّة تساؤلات يُمكنُ إجمالها كالآتي:

1. ما هي بواعث رحلات الإمام ابن باديس؟
2. وإلى أية درجة سعت هذه الرحلات في تبيان مظاهر الوعي بالآخر / الفرد الجزائري في تهذيبه وإصلاحه؟
2. وهل يمكن تبين بنية سردية تُميّز رحلات الإمام ابن باديس وتُحدِّد معالمها؟

* تقسيم الدراسة

اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. جاء المبحث الأول في بواعث رحلات الإمام ابن باديس، والثاني عن مسار الرحلات ومضمونها، أما المبحث الثالث؛ فقد اشتمل على البناء الفني لرحلات ابن باديس، وأنهيتُ الدراسة بخاتمة ضمت أهم النتائج والتوصيات. هذا وقد تعددت جوانب الموضوع وتشعبت قضاياها، مما استلزم تنوعًا في المناهج البحثية ما بين التاريخي، والوصفي التحليلي كل في موقعه حسبما اقتضت طبيعة البحث.

2. بواعث رحلات الإمام ابن باديس:

تصنف الرحلات وفق الدوافع التي دعت أصحابها للارتحال، فهناك دوافع ذاتية، تُعد الأساس الذي تُبنى عليه الرحلة، ثم تأتي الأسباب الظاهرة لتكون مبررًا للقيام بالرحلة، وبالنظر لرحلة الإمام ابن باديس فقد تعددت البواعث التي تحكمت في تيار رحلاته وأسفاره نحو المدن الجزائرية، ومنها نذكر ما يلي:

1.2. الباعث العلمي:

يُعدُّ الباعث العلمي من أهم الدوافع لرحلات الإمام عبد الحميد بن باديس العلمية والتعليمية بالمدن والقرى الجزائرية، بل وإنه من الخصائص البارزة التي لازمت جمعية المسلمين الجزائريين قاطبةً في معظم مراحل وجودها، حيث يذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس في خطاب له ألقاه في الاجتماع العام الذي عقدته الجمعية في سبتمبر 1933 النشاط المرتبط بهذا الجانب فقال: "أوفدت الجمعية من رجالها للوعظ والإرشاد وفوداً لبلدان قطر في العمالات الثلاث وقامت تلك الوفود بمهمتها خير قيام"². ولما كانت غايتها "محاربة الآفات الاجتماعية وكانت طريقة الوعظ والإرشاد بالهداية القرآنية هي أنجع دواء لذلك عند المسلمين، رأيتُ أن تبتدئ بالعمالة الوهرانية، فكَلَّفْتُ هذا العاجز (ابن باديس) أن يقوم بذلك وأن يستعين في رحلته بكل مَنْ يكون في طريقه من أهل العلم فَقبِلْتُ بذلك واستَعَنْتُ بالله"³.

ورغم العراقيل التي كانت تصادفها، والتضييق الذي صدر من الإدارة الفرنسية بمنع أعضاء الجمعية من الوعظ والإرشاد بالمساجد، إلا أنه: "ما قام به رجالها من تعليم في عدة بلدان، وما نشره كتابها في جريدة الجمعية جريدة السنة النبوية المحمدية التي لقيت - بحمد الله - من المسلمين غاية الإقبال: هذا كله قام به رجال الجمعية، ولا غرابة أن يقوموا به فهم من أهل العلم وما أهل إلا الذين ينشرون العلم بدروسهم ومحاضراتهم وخطبهم ومنشوراتهم"⁴.

وكان الإمام ابن باديس نفسه أحرص على استشعار أهمية التحصيل العلمي لدى الفرد الجزائري، والقيام بمهمة الوعظ والإرشاد، ودعوة الناس إلى تعليم أبنائهم، بإنشاء المكاتب والمدارس لمقاومة الأمية، وتبليغ الدين الإسلامي تبليغا علميا. وقد وجد إقبالا كبيرا من أهالي الجزائر الذين كانوا أذانا صاغية، لنصائحه ووصاياه، وفي ذلك يقول: "عَرَفْتَنِي تَنَقَّلَاتِي فِي بَعْضِ قُرَى مَا فِي قُلُوبِ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْجَزَائِرِيِّينَ مِنْ تَعْظِيمِ لِلْعِلْمِ وَانْقِيَادِ لِأَهْلِهِ إِذَا ذَكَرُوهُمْ بِحِكْمَةٍ وَإِخْلَاصٍ. مَا حَلَلْتُ بَقَعَةً إِلَّا التَّفَّ أَهْلَهَا حَوْلِي يَسْأَلُونَ وَيَسْتَمْعُونَ فِي هَدْوٍ وَسُكُونٍ"⁵. كما لاحظ في أهل عمالة وهران: "إقبالهم على العلم بقدر ما كانوا فيه من تعطش وشوق لسماعه"⁶. وكان الناس يترددون عليه من جميع طبقاتهم للسؤال وسماع الذكر، وكلما ذكَّروهم بذلك قرأ على وجوههم سمات القبول والإذعان وبقاء الأثر النافع⁷.

وظهر لنا من أقوال الإمام ابن باديس التي ألقاها في مختلف البلاد أن رسالته الكبرى علمية إصلاحية، وقد دعا الناس إلى ما كان يناسبه منها، حيث كانت خطته المستقيمة هي نشر العلم والفضيلة ومقاومة الجهل والريزية. وتثقيف الشعب الجزائري⁸. وذلك لأنهما كل ما يحتاج إليه الإنسان في كماله وسعادته وهما كل ما ترمي إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بسعيها⁹.

وقد دعا الإمام ابن باديس كافة الجزائريين إلى العناية بالعلم وطلبه لأن "العلم والتعليم طبيعي في البشر"¹⁰، ورأى أن مسؤوليته في هذا الشأن عظيمة، فشكَّل - في كل زيارة أو سفر - حلقات متصلة بالموعظة في المحبة والأخوة ولزوم التعاون والتفاهم¹¹، وأخرى مقصودة منها أن يبلغ الجزائريون في المعارف والفلاحة والتجارة والصناعة إلى مستوى الفرنسيين¹². وأبدى الإمام - بعد ذلك - ارتياحا كبيرا لقبول دعوته وانعطفًا من قبل بلدة الأصنام (الشلف حاليًا) وفي أهلها من فهم وقبولٍ للتعليم¹³، كما استرعى انتباه "أهل مستغانم أهل ذكاء وحسن نية وإقبال على العلم"¹⁴. ثم إن أشد ما كان له وقع في نفسه هو الانطباع العميق لأهل العاصمة الغربية (وهران)

من تعطش للعلم وإقبال على سماعه وما لقيه فيها من نخبة الفضلاء ذوي المعارف المتعلمين بالفرنسية على جانب من الدين والقومية¹⁵.

وفضلاً عن ذلك كله، نجد الإمام ابن باديس يذكر خلال تجواله، العلماء الذين التقاهم، وجلس إليهم، ونمو استعداده وتعمده بالتوجيه والتكوين، فما كان أحدهم يسمع بنزوله بقريتهم أو مدينتهم - كما قال الإمام - إلا "ويهرعون إلينا مثل بقية إخوانهم من أهل البلدة، وفي بعض البلدان تسبق ضيافتهم ضيافة غيرهم ثم تجد الضيافة عندهم تشمل أهل البلدة وأعيانها وتجد الضيافة عند غيرهم تشملهم كذلك فتشاهد في مجامع الكرم أبناء الإسلام ترفرف على رؤوسهم روح الأخوة والاتحاد، هذا بين المسلمين، ثم إننا في أكثر البلدان أجد النواب المسلمين مع مير البلدة في غاية الوثام والمودة وكثيراً ما حضر معنا أفراد من الفرنسيين واليهود في مجالس القهوة والشاي وبعض الضيافات فنرى مصافاة واتحاداً، ولا شك أن ما كنا نقوله في مجالسنا ودروسنا مما يزيد ذلك الاتحاد قوة ومتانة"¹⁶.

2.2. الباعث الديني:

إن خير ما يوجه إليه المصلح عنايته، ويسوق إليه اهتمامه هو «الناحية الدينية» لإصلاح الأمة من هذه الناحية يتضمن كل إصلاح، وخصوصاً بعد أن مُنيت الأمة الإسلامية بالاحتلال والانحلال واستحوذت عليها الفوارق التي اتخذت منها معولاً هداماً يُهدم أساس الدين الإسلامي ويصدع تماسك بنيان المسلمين الذي كان يشد بعضه بعضاً. وهو المسعى الذي عمل عليه شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين جمعت بينهم الرغبة الصادقة في الإصلاح والتعاون على البر والتقوى، لم يدخروا جهداً في صراعهم ضد السلطات الاستعمارية وأعوانها إلى صراعهم ضد الانحرافات المذهبية، فضلاً عن معركتهم ضد ظواهر الضعف والتمزق التي أصابت المجتمع الجزائري المسلم في كل نواحي الحياة¹⁷. وقد ركزت الجمعية دعوته الإصلاحية في مراحلها الأولى على الأهداف التالية:

- 1 - إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع، وتطهيرها من مظاهر التخاذل والتواكل التي تغذيها الطرق الصوفية المنحرفة.
- 2 - محاربة الجهل بتثقيف العقول، والرجوع بها إلى القرآن والسنة الصحيحة، عن طريق التربية والتعليم.
- 3 - المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، بمقاومة سياسة التنصير والفرنسة التي تتبعها سلطات الاحتلال¹⁸.

وقد سار الإمام عبد الحميد بن باديس على هذا النهج، فجاء الباعث الديني أحد البواعث المهمة لرحلاته إلى المدن والقرى الجزائرية، وفي هذا يقول: "ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ورفع الأمية والجد في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لا بد منها لحفظ النظام. كنت أذكرهم بهذا كله وأقرأ على وجوههم سمات القبول والإذعان وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدقٍ وَعَدِّ قوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}"¹⁹.

وقد سعى الاحتلال الفرنسي إلى طمس الهوية الإسلامية من حياة الناس ومعاشرهم، فجعل الإمام ابن باديس من محاضراته ميداناً رحباً لإبادة هذا الزعم فكانت - كما يقول: "الدروس كلها حثاً على الفضائل وتنفيراً من الرذائل وبياناً لحقائق الدين التي بمعرفتها يكمل الإنسان في إسلامه وفي إنسانيته ودعوة للتوحيد والاتحاد والإحسان إلى جميع العباد وحثاً على التآلف والتعاون مع جميع السكان على اختلاف الأجناس والأديان، وكانت مادة الدرس دائماً آية من كتاب الله مُشَقَّعةً بحديث رسوله عليه وآله الصلاة والسلام، وكنتُ بعد الدرس أعرف الناس بالجمعية ومقاصدها حسبما هو مبين في قانونها الأساسي، وألخص لهم وصايا الجمعية في هذه الكلمات الثلاث: تعلموا- تحابوا- تساموا- وأشرحها لهم وأذكر لهم فوائدها ثم أبين لهم أن الجمعية للجميع وأنها ليست ضدّاً لأحد لا للزوايا ولا لغيرها وأن غرضها هو نشر العلم والفضيلة بين الجميع ثم أذكر لهم فضل الحكومة التي أذنت لهذه الجمعية وفضل رجالها الذين لاقينا منهم حسن المقابلة والتأييد"²⁰.

يُضاف إلى ذلك، ثورة الإمام ابن باديس على البدع المستحدثة في المجتمع الجزائري حيث أنكر على أهل البدع بدعهم وضلالاتهم، وأعمالهم الشركية، فيقول: "فإن العامة فيما رأيت من كثير منهم يفترون على البنائات المضروبة على الأضرحة ويظهرون فيها من الخشوع والخضوع ما لا أراه منهم في بيوت الله ومن ذا الذي يسوي بيت الخالق ببيت المخلوقين لولا انتشار الجهل وكثرة الغفلة والسكوت عن الحق وعود من لا يجوز لهم القعود عن التعليم والتبيين"²¹. ولقد أدرك الإمام هذا الخطر العظيم، وأبلى في ذلك بلاءً عظيماً، ورأى أن إصلاحه من الأولويات، فسعى في بيان الحق في تلقين العقيدة وتعليمها من القرآن والسنة، والرد على المبتدعة ومقالاتهم في الصحف برسائله وخطبه، وفي ذلك يقول: "فحذار أيها الإخوان في الله من هذا الجهل الذي أدى إلى تحريف الكلم عن مواضعه وإلى المداومة على المنكر والفرح به، ونعوذ بالله- لنا ولجميع إخواننا المسلمين- أن نكون من الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. ونسأله تعالى- لنا ولإخواننا المسلمين- أن نكون من الذين يرجون لقاء ربهم فيعملون الأعمال الصالحة ولا يشركون بعبادة ربهم أحدا"²².

3. مسار الرحلات ومضمونها:

نرى أن الإمام عبد الحميد بن باديس قد نقل لنا صوراً حية وصادقة عن المجتمع الجزائري وعن عادات السكان وأحوالهم الاجتماعية والدينية ومآسئهم أثناء الاحتلال الفرنسي، في فترة تعتبر من بين أدق وأحرج الفترات التي مرت بها الجزائر، حيث ساد الجهل والفقر والبدع وتفرقت أهواء العباد.

وتألفت رحلات الإمام ابن باديس من أربعة أجزاء عُنُونُ كُلِّ رحلةٍ من هذه الرحلات عند نشرها بعنوان خاص بها، حملت الرحلة الأولى عنواناً عاماً هو للتعارف والتذكير، وحملت الثانية عنواناً خاصاً جولة صحفية، بينما كان عنوان الرحلة الثالثة في بعض جهات الوطن، والرابعة هي وحدها التي حملت لفظ الرحلة في عنوانها: رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية²³.

تعتبر هذه الرحلات تقييداً لمراحل تجوال الإمام من بلدة إلى أخرى في شرق الجزائر ووسطها وغربها، وفيها سجل أوصاف المدن والقرى التي مر بها وأحوال أهلها، معتمداً في ذلك على المعاينة والمشاهدة، ومُتوخياً الأمانة والدقة في الوصف والابتعاد عن المبالغة. وبيّن في مشاهداته أنه لم يقصر تقييده على أوصاف تلك المناطق وأهلها وإنما أضاف إليها الأخبار والأحاديث التي سمعها من العلماء الذين التقى بهم، فضلاً عن أنه دَعَمَ

مشاهداته في بعض المواضع بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة كي يوضح من خلالها ما عجز خطابه عن إيضاحه فيتم له الغرض من تقييده وتكون فائدته أكبر.

إنَّ الهدف الأول من رحلات الإمام ابن باديس التعرف على بلاده التي سينشر فيها العلم والمعرفة، ويبعث فيها عزة الإسلام والتمسك بالشخصية الجزائرية الإسلامية. وإن هذه الرحلات وحدها تستحق دراسة منفصلة لما حوته من تجربة غنية من جهة معرفة حال المواطن الجزائري الاجتماعية والدينية فضلاً عن ذكره للشيوخ والعلماء والأعيان الذين التقاهم، وطائفة من المسائل التي تداولها معهم في مجالسهم. وقد بدأ الإمام ابن باديس رحلاته لعددٍ من المدن والقرى بالناحية الشرقية من الوطن، حيث كان يشتري تذكرة قطار سنوية لذلك الغرض، ويتنقل مفرداً في أغلب المراحل.

تميّزت الرحلة الأولى بالرغبة في الاتصال بالناس ومعرفة أوضاعهم وتوجيههم في أمور حياتهم ودينهم. وبدأ سرد ابن باديس لأحداث ومحطات رحلته هاته من قرية الحروش*، فعزابة، وسكيكدة، والعلمة، وأمجاز الدشيش وسيدي مزغيش**، وعين مليلة، وأم البواقي، وعين البيضاء، فمسكيانة***. وفي الرحلة الثانية جال الإمام ابن باديس عبر أهم المدن والقرى في منطقة القبائل في شهر صفر 1349هـ (جويلية 1930م) انطلاقاً من سطيف ثم توقف في برج بوعريج ثم مضى إلى تازمالت وأقبو وبجاية وعزازقة وتيزي وزو ودلس وتيقزيرت وأزفون والأربعاء بني راثن وعين الحمام. وإذا قام ابن باديس بالرحلتين الأولى والثانية في مناطق من شرق الوطن ووسطه بمفرده فإن رحلته الثالثة تمت الرحلة في صيف 1350هـ - 1931م وكانت رفقة تلميذين له هما (الفضيل الورتلاني) و(محمد آل الصادق الجندي) كانت وجهتها مدن أخرى في غرب الوطن ووسطه، وهي مليانة والشلف التي كانت تحمل اسم (الأصنام) وغلليزان ومستغانم وأرزيو ووهران. أما الرحلة الرابعة والأخيرة شملت مدنا في الجنوب والوسط والغرب تحت عنوان "رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية" وكانت تلك المدن هي المدية والبرواقية، وقصر البخاري، والجلفة، والأغواط، وأفلو، وسوقر، وتيارت، وتمهت، وفرندة، ومعسكر، وسعيدة، والبيض، ووهران، وسيدي بلعباس، وعين تموشنت، وتلمسان، ومغنية، والغزوات، وندرومة، وأرزيو، ومستغانم، وزاوية ابن طكوك ثم غليزان. وقد دامت هذه الرحلات أكثر من شهر، انطلق فيها من العاصمة في 27 من المحرم 1351هـ - جوان 1932م

* نماذج مختارة من الرحلات

1.3. التعليم والوعظ والتذكير: خصص الشيخ الرحالة مهمته في هذه المحطة لعملية التعليم والتوجيه والحث على أعمال البر، فأتثناء إقامته بمدينة (عزابة) كان درسه بعد صلاة العشاء من مساء حلوله بهذه القرية حول الآية القرآنية "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" داعياً إلى الوحدة والتآزر على الخير، والتعاون على البر، حيث يذكر العبرة من مظاهر الأخوة في الصلاة حاثاً على تشييد المساجد ذكرناهم بإتمام ما كانوا وضعوا أساسه من بناء جامع الجمعة²⁴. ثم انتقل إلى (العلمة) وتحدث لنا عن دروسه في الوعظ والتذكير التي كان يقدمها في مجلس عام بالسوق²⁵، وبعد لقاء الناس وتذكيرهم بأثر القرآن في العرب الذين تطوروا به وتوحدوا بفضلها. وحلَّ بقرية سيدي مزغيش فهبَّ الناس إلى لقاءه، وتعددت جلسات الوعظ ومجالس التذكير والدروس الدينية في المسجد وخارجه²⁶. ولما حلَّ بمدينة (عين مليلة) التي كانت تموج بالخلق في استقباله، نزل بالمكتب القرآني حيث اجتمع

بأعيان البلدة وأهل العلم الذين صادفتمهم. وبعدها قضى يومين في المدينة مدرسا ومحاضرا تشمله العناية والاحترام من الجميع خاصة من مثقفي المدينة. وقد قال فيه أحدهم قصيدة عبّرت بوضوح عن جهد ابن باديس في بعث وعي في النفوس وإرشاد الناس في دينهم وحياتهم، جاء فيها:

وقام بدين الله في كل موقف * ينادي ألا يا قوم سيروا إلى الهدى

فصان حقوق الله من كل جائر * ولم يخش قول المفسدين من العدا²⁷

وإن استطاع ابن باديس أن يدخل بعض المدن ويلقي فيها دروسه المسجدية، فإنَّ سلطات الاحتلال الفرنسي منعتة من إلقاءها في المجالس وال النوادي، لكن الاتصال المباشر وتبادل الآراء والأفكار العامة بينه وبين الأهالي ظل مهمًا لاسيما حين مضى يتنقل للتعريف بمجلة الشهاب وجمع الاشتراكات لها.

2.3. الاحتفاء والاعتناء: وإذا كان طابع الرحلة تسجيلي فإنه لم يخل من وصف حرارة اللقاء بالناس وغبطته بحسن الاستقبال والاهتمام الخاص من المثقفين والأعيان، ومبادراتهم العمل بتوجيهاته ونصائحه. فمن ذلك ما لقيه الإمام ابن باديس بمدينة (مسكيانة) من حفاوة واحترام وتقدير من أعيان البلدة الذين قابلهم ودعوه ضيفا عليهم²⁸. وبمظاهر الحفاوة والاستقبال ذات الطابع الرسمي، كان في انتظاره بمحطة القطار في مدينة (عزابة) قاضيها وبعض النواب البلديين وأعيانها في سيارتين اثنتين²⁹. ورغم المسافة الكبيرة التي قطعها الكاتب والمدن والقرى التي حل بها فإنه لم يحدثنا عن شيء ذي أهمية خاصة غير تلك الصورة التي أثنى فيها على أهل تلك المناطق شاكرًا لأهلها حسن الاستقبال وكرم الضيافة «لقد لقينا في كل محل دخلناه ما عرف به شعبنا الجزائري العظيم من كرم وأريحية»³⁰.

3.3. ملاقات العلماء والأعيان: لقد لقي الإمام عبد الحميد ابن باديس في رحلاته ما هو أهل لعلمه وفضله من الترحيب والحفاوة، ومظاهر التكريم مما وقع أعظم وُقِع في نفسه وجهر به في جميع مجالسه، فغالبًا حين كان يُستقبل عند نزوله في أية مدينة أو قرية من قبل خيرة علمائها وشيوخها وأعيانها، يُثني على مكانتهم العلمية والدينية، وصنيعهم الجميل في خدمة الإسلام وهداية الناس؛ فيقول عند دخوله مدينة خميس مليانة واصفًا سمات بعش علمائها بقوله: "ممن عرفنا بها السيد عليش من طلبة العلم النشيطين وهو داعية من دعاة النهوض بالعلم في تلك النواحي بعقل صحيح وعقيدة سليمة، والشيخ الفقيه ابن علي الإمام بالمسجد وأمننا المسجد"³¹، ومن هذا قوله أيضًا في فضلاء مدينة الشلف: "ممن عرفنا من فضلائها مفتيها العالم الماجد الشيخ الوانوفي بن الشيخ بومزراق الزعيم المقراني المشهور والشيخ يمثل شهامة أسرته وكرمهم وهمتهم إلى معارف أكسبته إياها الأسفار والتجارب وهو القائم بالخطبة والتدريس في جامعها، والعلامة الأملعي الشيخ طالب شعيب القاضي بها فما شئت من علم وأخلاق وفصاحة وإطلاع على شؤون الوقت وعدالة ونزاهة"³². وبغليزان ينصب اهتمام الإمام ابن باديس على أوصاف علمائها ومن ذلك قوله: "أول من اجتمعنا به من فضلائها الأخ الشيخ مولاي محمد أحد أهل العلم وشيخ الزاوية بها وهذا من شيوخ الزوايا الذين لهم رغبة في نشر العلم وهداية الناس وسعة صدر في سماع الحق وأدلته وذهب بنا إلى دكان التاجر النشيط المهذب السيد ابن منصور مصطفى التلمساني ثم اجتمعنا بقاضي البلد العالم الماجد الهمام الشيخ بوخلوه آل بو عبد الله، رجل شهامة وعمل وكرم، واجتمعنا بالسيد المنور كلال رجل يتقد ذكاء ويفيض معرفة ويفوح أدباً ولطفاً، وكنت مشتاقاً للاجتماع بالشيخ سيدي

الحاج العربي التواتي"³³، ومنها أيضاً قوله في حديثه عن أديب مدينة أرزيو قوله: "نزلنا ضيوفاً على العالم الأديب الشيخ أبو عبد الله آل أبي عبد الله، عالم فصيح اللسان صحيح الإدراك مستقيم الفكر مهيب الطلعة معترف له بالعلم والفضل، وصادف قدومنا يوم الجمعة فصليناها خلفه"³⁴، وبوهران يقول متحدثاً عن أعيانها: "لما وصلنا وجدنا في انتظارنا جمعاً من أعيانها منهم فضيلة المفتي الشيخ الحبيب بوخالفة وفضيلة الشيخ الطيب المهاجي وغيرهما، وكانت حفلة الفطور في بيت آل المهاجي الكريم وكانت حفلة العشاء عند الجمعية الخيرية الإسلامية بمحلها وكانت حفلة حفلى دعيت إليها طبقات الناس"³⁵. إنَّ هذا الترحيب والتكريم مثلاً أصدق تعبير أعربت عنه هذه الصفوة من المجتمع الجزائري على اختلاف طبقاتها ومكانتها، عما تُكثُّه من الإعجاب الكبير بدعوة الإمام عبد الحميد بن باديس الإصلاحية، واقتناعها برسالته وتقديرها لشخصيته ولمواقفه التاريخية، وجهوده العلمية، ومدى تأثيرها الكبير في نفوس الجزائريين.

ويمكن تلخيص أعمال الإمام ابن باديس في هذه الرحلات بما يلي:

- 1 - التعرف على وطنه الجزائر لأن المشاهدة خير من السماع لمعرفة البيئة التي سيدعو فيها ومن ذلك أيضاً الالتقاء بالعلماء وطلبة العلم وحثهم على نشر الدعوة .
- 2 - مقابلة شيوخ الطرق الصوفية وإجراء الحوار معهم للرجوع إلى الكتاب والسنة في زهدهم وتصوفهم، وإقناعهم بنبذ الخرافات، وتشجيعهم على إرسال أبنائهم لتلقي العلم على يديه في قسنطينة .
- 3 - التعرف إلى المسؤولين الفرنسيين، وإن كان هؤلاء يتغيرون بين الحين والآخر فهو يتعرف إليهم ويوضح لهم أهداف حركته وأهداف جمعية العلماء فيما بعد .
- 4 - معرفة المشكلات التي تعاني منها المناطق المختلفة والعمل على حلها بقدر المستطاع وتنبيه المناطق الأخرى إلى الاحتراز من مثل هذه المشكلات، وذلك بإلقاء دروس عامة حولها، وقد تكون هذه الدروس بناء على اقتراح بعض علماء المنطقة التي يزورها.
- 5 - التعرف على نشاط التنصير والاستشراق والاستعمار في جذب بعض الجزائريين نحو فكره وثقافته ودعوته، وإبطال كيد هؤلاء بالتأكيد على وحدة الجزائر المنبثقة من الإسلام .
- 6 - زيارة إخوانه الجزائريين في أماكن عملهم كالمؤسسات التجارية والمعامل والمصانع والمزارع وعدم الاقتصار على المسجد والمدرسة. وقد يحضر في هذه الرحلات مناسبات اجتماعية مختلفة كالزفاف والختان والعقيقة ويستفيد منها في توجيه الحديث إلى الحاضرين. وهذا يؤكد دور الداعية وأنه لا ينتظر أن يأتيه المدعوون، وكذلك أن التهديد بمنعه من الوعظ في المساجد لن يوقف دعوته فهناك أماكن كثيرة يمكن أن تنطلق فيها الدعوة إلى الله ويلاحظ أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يكتب عن جميع رحلاته. بل سجل بعضها بقلمه وترك تسجيل بعضها الآخر لبعض أهالي المناطق التي زارها. أما وفود الجمعية ورحلاتها التي يمكن عدّها بدون تردد امتداداً لرحلاته فقد قام هو بتسجيل بعضها وسُجِّل البعض الآخر بأقلام أحد أعضاء وفد العلماء أو تلاميذه ممن كانوا يرافقونه في هذه الرحلات أو بقلمه هو³⁶.

4. البناء الفني لرحلات ابن باديس:

1.4. عتبة العنوان:

يُعدُّ العنوان "العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف، كما أنه من جهة يؤسس عينا ذات شبكة مرتبطة بكل أسرار النص وعلاماته، تختزن مقصدية المؤلف ونواياه ثم وعيه الأناسي ومدى إدراكه للكتابة التي حررها، كما تُضمّر نداءً للقارئ ومُرشدًا له في أن³⁷. بيد أن العنوان في الرحلات الباديسية، ارتبط بما تحمله نصوصها من أوصاف وانطباعات ومواقف، وما يجده القارئ من البصمة الجمالية الإغرائية حين يطلع على أول عتبة في هذه النصوص، وهي عتبة العنوان الذي يجلبه لاقتناء موضوعه والمبادرة في الاطلاع عليه. وقد ارتبط عنوان رحلة ابن باديس الأولى - عند نشرها - بما هو خاص بها، إذ حمل عنوانا عاما هو "للتعارف والتذكير"، حيث سعى الرحالة في كل مرحلة من رحلته إلى أن يعرف الحالة الدينية والاجتماعية في كل مدينة، ومدى إقبال الناس على التعليم أو فتورهم تجاهه، ودرجة حرصهم على بناء المساجد وعمارتها، ووضع المكاتب القرآنية وحجّم الإقبال عليها. ويريد أيضًا أن يقف على ما يشغل اهتمام الناس أكثر مُتحمسًا أوضاعهم وعلاقاتهم، كما يسعى من جهة أخرى إلى معرفة آراء الناس ومواقفهم ليسهل عليه في النهاية وعظهم وإرشادهم وتذكيرهم، وهو تذكير بأعمال الخير والاحسان والعمل الصالح، تذكير بأحكام القرآن والحديث في أمور كثيرة، وما جاءت به التعاليم الإلهية لصالح حياة الناس في دنياهم وآخرتهم. وفي ذلك كله، "بدا الرحالة ذا رغبة شديدة في فهم الناس وحرص على حسن توجيههم متمسكا في ذلك مخاطبة الوجدان والحس الديني لدى الانسان الجزائري، لذا كان الحديث والقرآن نصا محور حديثه ومنطلقه وسنده في أحكامه وتوجيهاته للناس، في حسن أداء الفرائض الدينية، وفي ضرورة الوحدة والتآزر في نبذ خرافة ومقاومة مشعوذ"³⁸. ويبدو من خلال الاطلاع على دور الإمام ابن باديس في هذه الرحلة أن الرجل حمل مهامًا أثقلت كاهله إذ كانت الرحلة تجربةً مُضنيّةً في حقبة الاستعمار الفرنسي، ارتبطت بالدعوة إلى اليقظة والنهوض بالمجتمع تمثلاً بتراث الأمة الفكري الحضاري بعنصريه الأساسيين: اللغة العربية والدين الإسلامي.

وقد شكّل العنوان بالنسبة للرحلات الجزائرية وظيفية هامة تُحيل القارئ في كثير من الأحيان إلى موضوع النص وهدفه، بل ولا تخلو هذه الرحلات في الغالب من عنوان يدل على اتجاهه أو مضمونه، وقد حملت رحلة ابن باديس الثانية "جولة صحفية" عنوانا خاصا دلّ على "علامة إخبارية تُقدم تلميحًا لمضمون المؤلف في جملة أو جمل متعددة مرتبطة فيما بينهما"³⁹. ونجده قد عقد فيها الرحيل إلى مدن وقرى ونشر ما يلقيه فيها من دروس ومحاضرات على صفحات مجلات الجمعية حيث شكلت صحفها أهم مساحة لبث موادها الإصلاحية والإخبارية. فكان الإمام ابن باديس لا يتوان عن إعطاء تقارير رحلاته عند مباشرة الرحلة، وتزويد القارئ الجزائري بأهم الأخبار والأوضاع المهمة عبر الوطن وتُمكنه من الاطلاع عن كثب بما يجري في وطنه، فيكون بذلك صداها محمولاً بطريقة إخبارية مُلتزمة أسلوبًا تقريريًا.

ومن جماليات عنوان الرحلة الثالثة "في بعض جهات الوطن" استهلاله بحديث الإمام ابن باديس عن الأمكنة التي زارها، باعتبارها أن الاستهلال مقدمة للفت انتباه القارئ وجلب اهتمامه، ومعايشته التجربة الرائقة التي عاشها الرحالة الإمام. وانطوى هذا الاستهلال على البؤر المكانية ذات القيمة الروحية والمعنوية. ومن المثال الذي نسوقه في هذا المقام، قول الرحالة الإمام في استهلال رحلته إلى وسط وغرب البلاد: "رأينا أن نعقد رحلة من العاصمة الجزائر إلى وهران، وما بينهما من البلدان، (...) فأمننا من قسنطينة العاصمة فأقمنا بضعة أيام ثم

شرعنا في رحلتنا فأتممناها في نحو عشرين يوماً، وحللنا في مليانة ثم خميس مليانة، ثم الأصنام، ثم غيليزان، ثم مستغانم، ثم أرزيو، ثم وهران وكان الحديث في مجالسنا حيثما حللنا يدور على جمعية العلماء ومقاصدها ومنافع الأمة منها (...). مع ما يتخلل ذلك من تذكير بالله وتنبية على مصالح الدنيا والآخرة وتحريض على التأخي والتأزر وحسن الجوار والمعاملة مع جميع الأجناس المتساكنة في هذا الوطن، وكنا نرى في جميع المجالس إقبالاً وقبولاً مما لا شك معه في بقاء الأثر الطيب في القلوب إن شاء الله⁴⁰.

وأما الرحلة الرابعة فهي وحدها التي أحالت مباشرةً إلى الموضوع، وتطابقت مع وظيفتها، حيث غدت الرحلة في عنوانها: "رحلتنا إلى العمالة* الوهرانية" إلى هذا النوع الذي اتخذ من جنس الموضوع الرحلي اسمًا لعنوان نصه "رحلتنا" حيث ورد السياق الذي تمخض عنه نسبة الرحلة بالمكان "الوهرانية" بشكل مباشر، يُوحى في معظمه إلى محور أساسي كانت الدروس كلها مخصصة لأهالي المدن المنتسبة للعمالة من دون تمييز، يحثهم فيها على الفضائل ويحذرهم من الرذائل ويدعوهم إلى التآلف والتعاون، مُشفعةً دائماً بأية من كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم⁴¹. وكان لتجواله بفضاءات الغرب الجزائري تأثيرٌ قويٌّ على نفسية الإمام ابن باديس، فقد بدأ: "سعيداً باستجابة مواطنيه، وعلى العناية التي خصَّ بها الجميع، بل وأثنى على اهتمام الصحافة الفرنسية ورجالها برحلته، ولم يتخلَّفوا عن حضور بعض حفلات (القهوة) و(الشاي) حتى ولو كان ذلك منهم لرصد ما يصدر عنه وما يبوح به في تلك الجلسات الخاصة التي كثيراً ما تظهر فيها الشخصية على حقيقتها تفكيراً وسلوكاً، في إشارة أو رأي"⁴². ولما كانت أغراض الرحلة عند الإمام ابن باديس إصلاحية تربوية كما أخبر عن نفسه، فقد "صاغ الكاتب رحلته بأسلوب عالم يعرض صورة لوضع الأمة خاصة في جانبه الديني والاجتماعي، فهي أمة متشبثة بقيمها العربية الإسلامية في التآلف والكرم والتعاون، ذات استعداد تام لما يأمر به دينها وما يدعو إليه مصلحوها. وهذه هي العناصر التي تركز عليها وصف الكاتب وصفا مباشرا من دون الاحتماء بزخرف لفظي ولا امتطاء خيال يتوق إلى أوضاع مثالية، لأن الرجل كان مشدوداً إلى واقع أمته الذي يؤرقه، وهو حريص على أن يعبر عن ذلك مباشرة بقلم رجل دين تعنيه الحقيقة المجردة، لا بقلم أديب يجنح بالحقيقة إلى أشعة الخيال، وطلاوة التعبير"⁴³.

2.4. عتية الاستهلال:

يُشكل الاستهلال آفاق النص الذي يفصح تارة ويدفع أخرى بالقارئ إلى التلهف في است فراغ النص حتى آخره، وهو بمثابة "جملة توضيحية يُوظفها الكاتب في الصفحات الأولى لمؤلفه التي تسبق - عادة - متنه، لتوضيح القصد منه، وهي شاهدٌ يوضع في مستهل عملٍ أو فصلٍ للإشارة إلى روح العمل أو الفصل"⁴⁴. ويتمثل الاستهلال في رحلات الإمام ابن باديس في المقدمة التي أعدها قبل نصوصه الرحلية حيث استثمر الرحالة في رحلته الأولى استهلالاً محوريًا بوصفه علامة إرشادية توجه القارئ وترشده وتوفر له معلومات حول موضوع الرحلة. وكان وجود هذا التمهيد ضروريًا من وجهة نظر الإمام يوضح الدافع الذي جعله يُدون رحلاته وفي ذلك يقول: "عَرَفْتَنِي تَنَقُّلاتِي فِي بَعْضِ قَرَى مَا فِي قُلُوبِ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْجَزَائِرِيِّينَ مِنْ تَعْظِيمِ لِلْعِلْمِ وَإِنْقِيَادِ لِأَهْلِهِ إِذَا ذَكَرُوهُمْ بِحِكْمَةٍ وَإِخْلَاصٍ. مَا حَلَلْتُ بِقَعَةٍ إِلَّا أَلْتَفَّ أَهْلَهَا حَوْلِي يَسْأَلُونَ وَيَسْتَمْعُونَ فِي هَدْوٍ وَسُكُونٍ وَكَلِمٍ (...). وما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ورفع

الأمية والجدّ في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لا بد منها لحفظ النظام"⁴⁵.

لقد استغل الإمام ابن باديس تقنية الاستهلال في مطلع رحلته وأدرك جيداً قيمته من خلال التركيز على نقطة محورية، تمثلت في كون الرجل وعى بمواطن الخلل في المجتمع الجزائري، إذ كان سوء الأحوال الدينية والخُلُقية والفكرية والسياسية أمراً يُنذر بالخطر، فاستوجب ضرورة الإسراع في الإصلاح، فحدّد رسالته مُنادياً بالتغيير وتنوير عقول الناس بالعلم الشرعي أولاً.

ومن نماذج الاستهلال الوصفي الذي اعتمده الإمام ابن باديس في رحلته الثالثة، لما نقل القارئ داخل الموضوع الرئيس للرحلة، فوصف رحلته إلى العاصمة الجزائر ثم وهران وما بينهما من المدن والقرى برفقة بعض طلبته، مؤكداً على دور "جمعية العلماء ومقاصدها ومنافع الأمة منها (...)" مع ما يتخلل ذلك من تذكير بالله وتنبيه على مصالح الدنيا والآخرة وتحريض على التآخي والتآزر وحسن الجوار والمعاملة مع جميع الأجناس المتساكنة في هذا الوطن"⁴⁶. إنَّ قراءة الفقرة السابقة تكشف صورة لاستهلالٍ إشهاريٍّ للجمعية التي لعبت دوراً مفصلياً في التوعية والثقيف وفي التعليم وفي التوجيه والتربية، وغدت بعد إنشائها توثق أواصر المجتمع الجزائري وتثبت عقيدته.

ويتردد هذا المعنى نفسه في الاستهلال الذي خصَّ به الإمام ابن باديس رحلته الرابعة موضحاً انشغال جمعية العلماء بخطر انتشار الآفات الاجتماعية بين الناس (البدع والخرافات والأمية) حينها أدركت بأن الإمام ابن باديس الشخص المناسب لمحاربتها بتقرير العقيدة الصحيحة والردّ على المبتدعة، قال رحمه الله: "لما كان مقصود الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية وكانت طريقة الوعظ والإرشاد بالهداية القرآنية هي أنجع دواء لذلك عند المسلمين قررت أن ترسل أفراداً من أهل العلم بنواحي القطر للقيام بهذه المهمة العظيمة ورأت أن تبتدئ بالعمالة الوهرانية، فكلفت هذا العاجز أن يقوم بذلك وأن يستعين في رحلته بكل من يكون في طريقه من أهل العلم فقبلتُ بذلك واستعنتُ بالله"⁴⁷. لقد أحسنَ الإمام ابن باديس استثمار هذا الاستهلال في مطلع رحلته، وذلك ليُسعِفَه في رُبُط بداية الرحلة بما هو موجود داخل النص الرحلي، ويتأملٍ مقطع الاستهلال يمكن ملاحظة حضور المؤشرات الواقعية من خلال الإشارة المكانية (العمالة الوهرانية)، والإشارة إلى الشخصية المحورية (ابن باديس)، والإشارة إلى الموضوع الرئيس (محاربة الآفات الاجتماعية)، فضلاً عن اعتماده في نص الاستهلال على تقنية الوصف مما أفضى إلى تعليق الزمن والاحتفال أكثر بالمكان. وهذا الاهتمام بالمكان يؤكد الدور الكبير الذي ستلعبه هذه العمالة الوهرانية في الرحلة، ذلك أن هذه العمالة تُمثل البؤرة التي ستنتقل منها المشاهدات والانطباعات التي تجد طريقها إلى ذهنية القارئ المتعامل مع النص، وبهذه الطريقة، يغدو الاستهلال "بمثابة مفتاح أو كَشَّاف الرحلة، الذي يَفْتَحُ ويُنير مغالِقها للقارئ"⁴⁸.

3.4. السارد

تعد تقنية السارد "من أقدم التقنيات توظيفاً في مجال السرديات، فلو عدنا إلى أقدم أنماط السرد في التراث العربي، لوجدنا أن هذه التقنية قد وظفت بأشكال مختلفة، لكنها تتفق جميعها على أنها تمثل الذات

الثانية للكاتب، التي من خلالها ينقل خطابه السردى للمتلقى⁴⁹. وفي رحلات الإمام ابن باديس هذه الرؤية السردية تكون معرفة السارد فيها على قدر معرفة الشخصية الحكائية بحيث "لا تقتصر على ضمير واحد، بل إنها تتنوع في طريقة استخدامها للضمائر بين ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب، وقد يجمع الراوي بين هذه الضمائر الثلاثة في عدة مقاطع"⁵⁰.

وهو ما نلاحظه في سرد الإمام ابن باديس لرحلاته، حيث وظف ضمير المتكلم، فهو صاحب الرحلة، ومدونها، وبتوظيفه يستطيع التوغل إلى أعماق القارئ فيغيره بصدق، ويكشف عن نواياه بحق ويقدمها إليه كما هي لا كما يجب أن تكون⁵¹، نجد ذلك في مثل قوله: "ما كنتُ أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله"⁵²، وقوله: "فرايتُ من تلامذة المكتب ذكاءً وإقبالاً"⁵³، وقوله: "في مستغانم وكيل بلغه أنني أرغبُ في الذهاب إلى الزاوية للتعرف على أهلها وتعريفهم بالجمعية ومقاصدها"⁵⁴، وقوله: "رايتُ من أهل هذه العاصمة الربية لقطرنا الجزائري تعطشاً للعلم وإقبالاً على سماعه"⁵⁵.

وقد يردُ ضمير المتكلم بصيغة الجمع، نجد ذلك في حديث الإمام ابن باديس عن ارتحاله رفقة تلميذين له هما (الفضيل الورتلاني) و(محمد آل الصادق الجندلي)، يصف خروجهم من وهران عائدتين إلى الجزائر العاصمة، وذلك في قوله: "وقفلنا منها إلى الجزائر العاصمة لنحضر اجتماع مجلس إدارة جمعية العلماء، وقصصتُ على إخواني بالمجلس حديث رحلتي وما كان من نشر دعوة الجمعية وما كان من إقبال الناس عليها وما كان من شبه عرضت لبعض فيها فأنزلناها لما سألونا عنها"⁵⁶. فقد ابتدأ السرد بضمير المتكلمين (نا) - قفلنا، عند الحديث عن العودة من الرحلة، ثم تحول عنه إلى ضمير المتكلم (ياء) - إخواني، رحلتي، وقوله يصف ضيافته من أحد أعيان مدينة غليزان: "واستدعانا إلى النزول ضيوفاً عندهم فكرنا له كرمه ولطفه ووعدناه بالقدوم إليهم"⁵⁷، وقوله يصف دوره الإصلاحية: "قد خدمنا الأمة للإسلامية بما دعوناها إليه من علمٍ وفضيلةٍ ومحبةٍ وتسامحٍ وما عرضناه على أسماعهم من علوم القرآن وهدايته"⁵⁸.

ولم يخل السرد في رحلة الإمام ابن باديس من ضمير الغائب، فهو يحكي عن جملة من العلماء الذين التقاهم وجالسهم، وحضر في حلقات العلم لديهم، ووصف تلك المجالس، أو المناظرات التي كان يحرص على حضورها، والإفادة منها، وذلك في مثل قوله يصف أحد علماء (عزابة): "ودعانا السيد بومعيزة بلقاسم قائد دوار الزاوية وهو من أعيان بيت بومعيزة الشهيرة في تلك النواحي، وهو رجل مرضي عليه من جميع الناس هنالك في دينه وأخلاقه ومخزنيته"⁵⁹، وقوله يصف نزوله بسيدي مزغيش، وإعانة أهلها لخدمة مجلة الجمعية: "لقد كان الفضلاء الذين نحلُّ عندهم يقومون بأنفسهم لجمع اشتراكات "المجلة" ممن له قدرة وعنده رغبة بدون أن نتحمل أدنى تعب في ذلك. (...) فشكر الله لهم سعيهم"⁶⁰.

مما سبق نلاحظ أن الإمام ابن باديس زاول في سرد أحداث رحلاته بين ضمير المتكلم بصيغتي المفرد والجمع، وكذلك ضمير الغائب، وهذا التنوع في توظيف الضمائر، يُبرز وعي السارد بتوظيف هذه الضمائر بما يُناسب أحداث ومحطات وشخصيات الرحلات، وليُطلع القارئ على الحالة الاجتماعية والدينية للمدن والقرى التي مر أو نزل بها، وكذلك العلماء والفقهاء والأعيان الذين التقاهم وتعرف عليهم.

ومهما يكن من شيء فإن رحلات ابن باديس الداخلية جسدت حرصه الشديد على فهم المواطن الجزائري لمعرفة ما يشغل باله، همومه واهتماماته ومدى استجابته لما تعمل (جمعية العلماء له من أجل النهوض والتطور مما يأتي الحس الشديد بالانتماء الحضاري عنصرا جوهريا فيه بوجهيه اللغة والدين⁶¹.

5. خاتمة:

تبين لنا مما تقدم أن أشرف أنواع الرحلة هي الرحلة التي تنتج إصلاحاً في جميع النواحي العلمية والدينية والاجتماعية، والأخلاقية والثقافية، وهذا النوع هو موضوع هذه الدراسة التي كانت من أبرز نتائجها:

1. تمثل رحلة ابن باديس قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية مهمة، فهو بتدوينه لرحلته يعد من رواد أدب الرحلة في الجزائر، إنها تبرز الحركة العلمية والفكرية التي شهدتها البلدان الإسلامية في القرن الخامس الهجري، وما نتج عنها من مؤلفات أثرت المكتبة العربية حتى اليوم،
2. تبرز كذلك مكانة الحجاز (مكة المكرمة والمدينة النبوية كمركزين علميين حضاريين، يجتمع فيهما علماء العالم الإسلامي في كل عام لأداء فريضة الحج، وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم،
3. دور علماء الحجاز في الحركة العلمية والفكرية إلى جانب علماء العالم العربي والإسلامي. وقد هدف ابن باديس من تدوينه لرحلته إلى ترغيب الناشئة في طلب العلم والإشارة للرحالة المغاربة بتدوين رحلاتهم إلى الحجاز، وهم يقدمون إليها من تلك الديار البعيدة في كل عام لأداء شعائر الحج، وفي هذا ثراء أدبي وتاريخي وجغرافي واجتماعي، يبرز البلدان والمواضع الجغرافية في كافة الأقطار التي تمر بها قوافل الحجيج وما تكتنزه من تاريخ وحضارة وعادات اجتماعية بالإضافة إلى الأخبار والشخصيات من علماء وغيرهم، والسير التي يتضمنها أدب الرحلة.
4. ولم تقف أغراض الرحلة عند هذا الحد أيضا بل قد ترفت الى مقصد أسمى من ذلك فصار رجل الرحلة يحمل أعباء الرسالة الإصلاحية ويصدع الدعوة الى الإصلاح ، ويبث تعاليمه السامية في الأفاق التي يقدر له الوصول إليها ، ويغرسها في نفوس الامم التي يتعرف عليها .

الهوامش

- ¹ ينظر: اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1995، ص25.
- ² آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط3، 1997، ج3، ص317.
- ³ المصدر نفسه، ص523.
- ⁴ المصدر نفسه، ص523.
- ⁵ المصدر نفسه، ص523.
- ⁶ المصدر نفسه، ص297.
- ⁷ ينظر: المصدر نفسه، ص297.
- ⁸ ينظر: المصدر نفسه، ص285.
- ⁹ ينظر: المصدر نفسه، ص322.
- ¹⁰ المقدمة، ابن خلدون، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981، ج1، ص543.
- ¹¹ ينظر: المصدر السابق، ص311.

- 12 ينظر: المصدر نفسه، ص314.
- 13 ينظر: المصدر نفسه، ص310.
- 14 المصدر نفسه، ص313.
- 15 ينظر: المصدر نفسه، ص315.
- 16 ينظر: المصدر نفسه، ص320 و321.
- 17 عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، بسام العسلي، دار النفائس، بيروت، ط2، 1983، ص109.
- 18 الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده في تقرير مسائل العقيدة: دراسة تحليلية لأماني بنت ضيف الله السفياني، ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1437هـ/ 2016م، ص59.
- 19 ينظر: آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، ص297.
- 20 ينظر: المصدر نفسه، ص318.
- 21 المصدر نفسه، ص318.
- 22 المصدر نفسه، ج2، ص186.
- 23 اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 1995، ص26.
- * إحدى دوائر ولاية سكيكدة، وتعتبر من أكبر الدوائر في شرق الجزائري.
- ** من بلديات ولاية سكيكدة.
- *** إحدى دوائر ولاية أم البواقي.
- 24 ينظر: اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ص28.
- 25 ينظر: آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، ص299.
- 26 ينظر: المصدر نفسه، ص300.
- 27 ينظر: المصدر نفسه، ص301.
- 28 ينظر: المصدر نفسه، ص304.
- 29 ينظر: المصدر نفسه، ص298.
- 30 ينظر: المصدر نفسه، ص306.
- 31 المرجع نفسه، ص309.
- 32 المصدر نفسه، ص309.
- 33 المصدر نفسه، ص310.
- 34 المصدر نفسه، ص315.
- 35 المصدر نفسه، ص315.
- 36 عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي لمازن صلاح مطبقاني، دار القلم، دمشق، ط2، 1999، ص65-67.
- 37 الرحلة في الأدب العربي لشعيب حليفي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ب.ط، 2002، ص171 و172.
- 38 اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ص32.
- 39 الرحلة في الأدب العربي لشعيب حليفي، ص181.
- 40 ينظر: آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، ص308.
- * العمالة هو المصطلح الإداري السابق في عهد الاحتلال الفرنسي الذي خلفه بعد الاستقلال مصطلح (الولاية) وقد كانت الجزائر تتكون إداريا من ثلاث (عمالات).
- 41 ينظر: آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، ص318.
- 42 المصدر نفسه، ص321.
- 43 اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ص47.
- 44 عتبات النص - بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، منشورات مقاربات، المغرب، دط، 2008، ص45.
- 45 آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، ص297.
- 46 المصدر نفسه، ص308.

- 47 المصدر نفسه، ص317.
- 48 الرحلة في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري لناصر عبد الرزاق المواقف، القاهرة، دار النشر للجامعات المصرية، ط1، 1995، ص71.
- 49 تجليات الخطاب الروائي – مقارنة في تقنيات السرد لعماد خالد، مصر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016، ص54.
- 50 تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني لنفلة حسن أحمد العزي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص127.
- 51 ينظر: في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد لعبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، 1998، ص184 و185.
- 52 آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، ص297.
- 53 المصدر نفسه، ص301.
- 54 المصدر نفسه، ص314.
- 55 المصدر نفسه، ص315.
- 56 المصدر نفسه، ص316.
- 57 المصدر نفسه، ص311.
- 58 المصدر نفسه، ص323.
- 59 المصدر نفسه، ص299.
- 60 المصدر نفسه، ص300.
- 61 اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ص47.

المصادر والمراجع

1. اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة لعمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1995.
2. آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط3، 1997، ج3.
3. تجليات الخطاب الروائي – مقارنة في تقنيات السرد لعماد خالد، مصر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016.
4. تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني لنفلة حسن أحمد العزي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011.
5. الرحلة في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري لناصر عبد الرزاق المواقف، القاهرة، دار النشر للجامعات المصرية، ط1، 1995.
6. الرحلة في الأدب العربي لشعيب حليفي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ب.ط، 2002.
7. الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده في تقرير مسائل العقيدة: دراسة تحليلية لأمانى بنت ضيف الله السفيناني، ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 1437هـ / 2016م.
8. عبد الحميد بن باديس العالم الرياني والزعيم السياسي لمآزن صلاح مطبقاني، دار القلم، دمشق، ط2، 1999.
9. عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، بسام العسلي، دار النفائس، بيروت، ط2، 1983.
10. عتبات النص – بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، منشورات مقاربات، المغرب، دط، 2008.
11. في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد لعبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، 1998.
12. المقدمة، ابن خلدون، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981، ج1.